ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 07، العدد: 02 (2022) ص : 60 - 70

الذات النبوية عند الشعراء المتصوفة

The prophetic character with mystical poets

حكيمة بوشلالق
جامعة المسيلة
Hakima.bouchelaleg@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/04/21
تاريخ القبول:
2022/05/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الذات النبوية
- ✓ الحقيقة المحمدية
- ✓ النور المحمدي

الملخص:

يتناول المقال مسألة شعرية صوفية هامة تمثلت في تمظهر الذات النبوية في الخطاب الصوفي. وتجلي الحقيقة المحمدية وتوظيفها في نص المديح النبوي. والتغني بها والكشف عنها يمثل جوهر الإنسان الكامل؛ لأنها ولدت في نفوس الشعراء المادحين للنبي صلى الله عليه وسلم شعورا عارما بالحياة. فأصبح الإحساس مضافا إليه ومنسوبا له [الحب المحمدي هو حب النبي صلى الله عليه وسلم].

Article info

Received
21/04/2022
Accepted
16/05/2022

Keywords:
- ✓ *The prophetic character*
- ✓ *The truth of Mohammed*
- ✓ *The light of Mohammed*

Abstract :

This article tackles an important mystical poetic issue consisting in the prophetic character indices in the mystical discourse and the use of the truth of Mohammed in the prophetic praise. Praising the truth of the prophet Mohammed is a feature of the best of mankind. This has given the poets the feeling of love towards the prophet Mohammed, God's prayers and peace be upon him.

مقدمة

إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم عند الصوفية ومن والاهم حقيقة أزلية كانت قبل خلق الخلق، فهو الإنسان الكامل الذي اجتمعت فيه جميع أوصاف الجمال العقلية والروحية والمادية المطلقة، ومع أن بعض هؤلاء الشعراء ممن لم يشتهروا بالإغراق في التصوف يحاول أن لا يغالي في مدحه؛ حيث نالت قصيدة المديح عناية كبيرة عند الشعراء والنقاد ، فكانوا إذا هموا بنظم مدحة أعدوا عدتهم ونخَّلوا محفوظهم، واستحضروا المعاني التي سيديرون عليها قصيدتهم، ثم إذا نظموا عادوا إلى ما نظموا يغربلون، ويزداد حرصهم على ذلك وكَلفهم به، خاصة إذا كان الممدوح له بصرٌ بالشعر ودراية بفنونه، أو كانت له حاشية من الأدباء يتتبعون العثرات والسقطات أو بعض النقائص والنقائض.

والقارئ لنص المديح النبوي والمتمعن في أسلوبه والأفكار المبثوثة فيه تجده يسعى – جاهدا – إلى معرفة المعنى الحقيقي للذات النبوية من خلال فهمه للحقيقة المحمدية التي وظَّفها الشعراء المتصوفة في الخطاب النبوي.

هذا الأخير استطاع من خلاله الشعراء أن يوظفوا صورة فلسفية للنبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن فهمها إلا إذا قُرئ نص المديح وفُهمت جميع تشكيلاته الموضوعية وتقسيماته، وتجليات الحياة الكاملة للنبي صلى الله عليه وسلم من خلاله، بدءً من مولده إلى ذكر أيامه ومعجزاته وحياته السياسية من معارك وغزوات ومآثر وما استصحبها من هزائم وانتصارات، وصولا إلى ذلك الدعاء والتشفع وطلب العفو والرجاء على ارتكاب الذنوب والزَّلات، وأنَّ النبي(ص) هو المخلِّص والمنقذ لهم، وهو الشفيع المشفع والواسطة بينهم وبين الله تعالى.

1. ملامح التَّصوف في نص المديح النَّبوي

سعى المتصوفة عموما والمادحين للرسول صلى الله عليه وسلم إلى توظيف صورة النبي في أول القصيدة متخذين مختلف المقدمات كتوطئة لبداية قصائدهم كمقدمة النسيب النبوي التي استلهمها الشعراء على لسان محمد بن سعيد البوصيري في بردته والتي أُعتبرت النموذج الذي يُحتذى به على مرِّ العصور، كما أُعتبرت جسرا للوصول إلى الحقيقة المحمدية وإلى كشف الذات النبوية من خلال شعر المديح النبوي الذي عدَّه الدراسون فنا من فنون الشعر التي أسهم في نشرها التصوف تعبيرا عن العواطف الدينية وحبهم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ويرتبط المديح النبوي عند المتصوفة بالناحية الميتافيزيقية كالكلام عن (الحقيقة المحمدية) و(النور المحمدي) وما يدخل في ذلك مما له علاقة بالتصوف.

وهذا القسم من المدائح النبوية نستشف منه أن أصحابه قد نحو فيه منحى الغلو والمبالغة في مدحه صلى الله عليه وسلم وأطروه إطراء كان قد نهي عنه عليه الصلاة والسلام بقوله: " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، وقولوا: عبد الله ورسوله" (أكديرة محمد رشيد واسرايدي المصطفى،2010، ص:69)، فالتعظيم والتبجيل والتوقير والمدح ليس هو الإطراء المنهي عنه، وقول الرسول: (لا تطروني...) الذي يُحتج به جهلا من حرم محبة الرسول صلى الله عيه وسلم في منع مدحه، لا يعني المدح والإشادة بأخلاقه الفاضلة، وما أكرمه الله به وإنما إضفاء صفة الخالق على المخلوق أو صفة الربوبية على العبودية، وهذا ما يؤكده قوله صلى الله عيه وسلم: "وقولوا عبد الله ورسوله" (أكديرة محمد رشيد واسرايدي المصطفى، 2010، ص:69).

وهذا النوع من المدائح يعد فنا من فنون التصوف – على حد رأي زكي مبارك –(مبارك زكي،دت، ص:18) فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص، ولم ينظم فيه من غير المتصوفة إلا النذر اليسير، فهو يجعل من النبي صلى الله عليه وسلم سر الوجود وعلة الأكوان.

وذلك أنَّ المديح عند هؤلاء لا يتجاوز وصف النبوة الظاهر إلى القول بالحقيقة المحمدية، والنور المحمدي اللذين هما أصلان من أصول التصوف، بل إنَّ حقيقته ظلت تنتقل من نبي إلى نبي حتى ظهرت في شخصه صلى الله عليه وسلم، ونجد في هذا المنوال الشاعر "ابن خبازة ت637هـ" (المقري محمد بن أحمد، 1980، ص ص:379، 380)، يروي هذه الآراء قائلا (الفاخوري حنا، 1996، ص:182):

رسولٌ يراه الله من صفو نوره *** وألبسه بردا من النور صافيا
ومازال ذاك النور من عهد آدم *** ينير به الله العصور الخواليا
ثوى في ظهور الطيبين يصونه *** وديعة سر صار بالبعث فاشيا
وخص بطون الطيبات لحمله *** ليحمل فرعا للسيادة زاكيا
به وزنَ الله الخلائق كلهم *** فألفاه فيهم راجح الوزن زاكيا
وأنقذنا من ناره بظهوره *** ولولاه كان الكل بالكفر صاليا
وآدم لما خاف يزري بذنبه *** توسل بالمختار للَّه داعيا
فتاب عليه لما دعا به *** وأدناه منه بعدما كان نائيا
وقد يهجر المحبوب في حالة الرضى *** ويأبى الهوى أن لا يصدق واشيا
وعين الرضى عن كل عيب كليلة *** ولكن عين السخط تبدي المساويا
وأدرك نوحا في السفينة رعبه *** فخلصه إذ كان في الموت جاريا

ونجد الشاعر "ابن الجنان" (المقري التلمساني أحمد ، 2008،ص:120- 122)، في مخمساته المدحية يستسقي تلك المعارف دون نظر في دليل الثبوت ولا يغالي في الذكر كما فعل المتصوفة الأوائل، فقرر ما زعمه الصوفية في النبي صلى الله عليه وسلم، ولاشك أن الشاعر حينما ذَكر هذا فإنما يستند إلى الثقافة الشائعة في عصره ومعارفه دونما أن يكون له أدنى انتباه إلى مناقشتها، ذلك أنها تأخذ شكل المسلمات ، لذا نجده يشيد بتلك الاعتقادات في قوله (عبيدلي أحمد،2004-2005،ص:55):

فخذ لآدم قد تقادم عصره
من قبل أن يدري ويجري ذكره
سرٌّ طواه الطين فهم نشره
معنى السجود لآدم تفهيما *** صلوا عليه وسلموا تسليما

وصفة الغلو في هذه الأشعار تتمثل في ما أسماه المتصوفة باسم الحقيقة المحمدية والنور المحمدي، وتوسلهم به من قبل أن يخلق لتفضيله على الأنبياء عليهم السلام، فقد ورد في القرآن الكريم بذكر حقيقة تفضيل الرسل بعضهم على بعض، في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾(سورة البقرة، الآية:253)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ (سورة الإسراء، الآية: 55)، إلا أنَّ النبـــي صلَّى الله عليه وسلم وجَّـه الآية توجيها مناسبًا من خلال قطع الذريعة أمام أولئك الذين حاولوا أن يتخذوا من ذلك مطعنا في الأنبياء، ابتداء من النهي عن تفضيله عن باقي الأنبياء.

ولكن لا يعني هذا أن المتصوفـة في المغرب الإسلامي في القرنين السادس والسابع الهجريين قد خلت مدائحهـم من ذكر الأنبياء ومدحهـم، فقد مـدح ابن عـربي موسـى ونوحـا عليهمـا السـلام، فمن قولـه في مدح نـوح عليـه السلام (بن عـربي مُحـي الديـن 1954، ص: 165):

دعـا قومـه نوح ليغفر ربهـم *** لهم فأجابـوه لمـا كـان قـد دعـا
أجابـوا بأحوال فغطوا نيابهـم *** لستر بستر والسميـع الذي وعـي
ولو أنهم نادوا ليكشف عنهـم *** غطاء العمى ما ارتد شخص ولا شفى

وما نلاحظه أن المدائح النبوية بشكل عام استلهمت نمط السلف في المعاني والأساليب، وأخرى اتخذت نمطا آخرا تميز أصحابه في نظرتهم للرسول صلـى الله عليه وسلم، ومع هذا فإن الدارس لهذا الفن الشعري لا يعـدم أن يجد فيه "صورة جميلة أو أبياتا رائعة أو تعبيرا عفويا، وعاطفة صادقة أو لمحـة وحدانيـة معبرة" (أبو زيد علي، 1983، ص:49)، كما تأثرت المدائح في كلا القسمين بما هو سائد في ذلك العصر في البيئة المغربية والأندلسية من أضرب الإنشاد.

وبالتالي فإن شعر المديح النبوي يكاد يكون في معظمه صورة لما سبق من شعر المديح النبوي في القرون المتقدمة من الناحية الموضوعية أو الأسلوبيـة، فمن المواضيع التي طرقها شعراء المديح النبوي بالمغرب الإسلامي ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، وشيمـه وأخلاقه وصفاتـه، ووصف حنينهـم وأشواقهم إلى المرابع النبوية والروضة الشريفة، ومن الناحية الفنية فقد امتاز هذا النمط الشعري بسهولة الألفاظ وبساطة التراكيب، مع توشِيَتِهَا أحيانا بألوان من الزخرف اللفظي يضفي عليها طابعـا موسيقيا خاصـا يتوافق وطبيعة إنشادهـا، غير أن هناك مفاهيم جديدة لاحت في أفق هذا الشعر، واتخذت صفة ميتافيزيقية كالحقيقة المحمدية والنور المحمدي.

2. الحقيقة المحمدية عند الشعراء المتصوفة

الحقيقة الأزلية والمطلقة والتي لا يختلف فيها اثنين مسلمين هي الشهادتين: الأولى "لا إله إلا الله" أدق التعابير وأصدق الأقـوال المثبتة لإفـراد الله تعالى بالألوهيـة؛ أي إثبات إلهية الخالق سبحانه ووحدانيته، فإن الشهادة الثانية" محمد رسول الله" هي أيضا أصدق تعريف وأدق تعبير عن عبودية المخلوق، تلك العبودية التامة الكاملة المتمثلة في الحقيقة المحمدية. إذ كمـا أن الله تعالـى بتفـرده بالخالقية هو رب العالمين؛ أي رب كل ما سواه، فإن عبـده الأول ورسولـه المصطفـى المطلق رحمته؛ أي رحمته تعالى لكل ما سواه من الخلق في العالمين، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء، الآية:107)

ومن ثم فلا يصلح تفسير الشهادة الثانية (محمد رسول الله) بالمفهوم القاصر على الرسالة البلاغية أو الدلالة المحصورة في تبليغـه صلى الله عليه وسلم القرآن والسنة للناس الذين عاصروه.

والتفسير الصحيح لشهادة (محمد رسول الله) هو المفهوم المطلق للإرسال، وهو الإرسال الكوني بالرحمة للخلق في العالمين جميعـا لأن إرسال الله تعالى له رحمة للعالمين يعني شمول رحمة الله تعالى به لكل الخلق في العالمين، وهذا يقتضي لكي يتحقق شمول رحمته للعالمين سبق إرساله لكل الخلق إرسالا كونيا وجوديا بالرحمة والبركة وبالخير والسلم والسلام قبل الإرسال التبليغي؛ أي قبل وجوده الآدمي.

وفي شعر المديح النبـوي نجـد تفصيلا دقيقا للحقيقـة المحمديـة وفيهـا ذكر للكشف عن أسـرار النـور المحمـدي، وقد أبدع فيها المتصوفة وانتقوا أقوى المصطلحات الصوفية وأجلها المعبرة عن الحقيقة المحمدية وتنافسوا في النظم والإبداع خاصة وأن باب المديح النبوي ظل مشرعا يدخله كل من يحسن النظم سواء بالتقليد أو الإتباع (عبيدلي أحمد، 2004-2005، ص:49).

وهذا ملحظ آخر لابد من أخذه بعين الاعتبار في محيط القراءة النقدية لثقافة عصر من العصور، وهي ثقافة تأسست عبر العصـور المتوالية، حيث كان العنصر الديني فيها هو المحرك والفاعل في التوجهات والتصورات. كما شكلت الملامح الفقهية لهذه الثقافة العمود الفقري بقوة، وبهذا يمكن أن يختلط علينا الإحساس بالروح النبوية، وبين المكونـات الثقافية أو الأدبية لهذا الشاعر أو ذاك الفقيه.

إن تلازم الثقافـة الإسلامية مع الإحساس بروح النبوة له امتداد تاريخي بعد أن استقلت المدائح النبويـة عن مجراها الأول وخـلال العصور الأولى من تاريخ الإسلام، ففي هذه المرحلة كانت تعتبر وجها آخر للدفاع عن الرسالة المحمدية الإسلامية بصوت الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأصبح حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا ننسى كعب بن زهير وبردته التي لعبت دورها في نُظُمٍ لاحقة من هذا القبيل كبردة البوصيري.

3. تجلِّـي الذَّات النَّبويَّة عند بعض الشعـراء المتصوفـة

1.3. تجلِّي الذَّات النَّبويَّة في قصيدة أبي حنيفة النعمان

لقد ارتبطت المدائح النبويـة بالعلمـاء والفقهاء قبل اتصالها الوثيق بالأدب ثم التصوف حيث ينتسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان في قصيدة "الدر المكنون" الملقبة بالقصيدة "النعمانية" (عطية محمد عارف، 2003، ص ص:05، 06).

ويمكن أن تعد بداية لمرحلة التجمع والتشكل التي حدثت في قصيدة المديح النبوي، ففيهـا عناصر مختلفة تآلفت مـع بعضها البعض وتجمعت فأعطت القصيدة بالتالي بناءً جديدا، وهي أكثر القصائد التي تجمع فيها أكثر من عنصر خلال أربعة قرون.

أ. عنصر التلميح بالحقيقة المحمديـة

حيث يقول أبو حنيفة (عطية محمد عارف، 2003، ص: 08-12):

أنت الذي لولاك ما خلق امـرؤ *** كلا ولا خلق الورى لولاكـا
أنت الذي من نورك البدر اكتسى *** والشمس مشرقة بنور بهاكـا
أنت الـذي لمـا توسَّـل آدم *** من زلَّة بك فاز وهو أباكـا
وبك الخليل دعـا فعادت نـاره *** بردا وقد خدمت بنور سناكا
ودعـاك أيـوب لضـر مسـه *** فأزيل عنه الضر حيث دعاك

ب. عنصر المعجزات النَّبويَّة

فقد تضمنت القصيدة معجزات نبوية مختلفة ومتعددة، شملت مظاهر الكون جميعه من إنسان وحيوان ونبات وماء، وأبو حنيفة يعد أول من ذكرها بشكل واضح في الشعر- كما يقول مخيمر صالح- ولأنه فقيه سني كتب الحديث والتاريخ قد رددها وحافظ عليها الشعراء في مراحل تالية، وجعلوا قصائدهم لا تخلو منها (مخيمر الصالح،1986، ص: 24)، حيث يقول (عطية محمد عارف، 2003، ص :12-16):

لك معجزات أعجزت كـل الورى *** وفضائـل جلت فليس تحاكـا
نطق الـذراع بسمـــه لك معلنا *** والضب قد لباك حين أتاكـا
وكذا الوحوش أتت إليك وسلمت *** وشكا البعير إليك حين رآكـا
ودعوت أشجـارا إليك مطيعــة *** وسعت إليك مجيبـــة لنداكـا
والمـــاء فـاض برجتيك وسبحت *** صم الحصى بالفضل في يمناكـا
وشفيت ذا العاهات مـن أمراضه *** وملأت كل الأرض من جدواكا
ورددت عين قتادة بعـد العمـى *** وابـن الحصين شفيتـه بشفاكـا

ج. عنصر التوسل والرجاء

ويأتي في نهاية القصيدة (مخيمر الصالح،1986، ص: 25)، إذ يقول (عطية محمد عارف، 2003، ص :24-26):

يا مالكي كن شافعـي في فاقتي *** إني فقير في الـــورى لغناكـا
يا أكـــرم الثقلين يا كنز الغنى *** جُدْ لي بجودك وأرضني برضاكا
أنا طامع بالجود منك ولم يكن *** لأبي حنيفة في الأنـام سواكـا
فعساك تشفع فيه عند حسابه *** فلقد غدا مستمسكا بعراكـا
فلأنت أكرم شافع ومشفـع *** ومن اِلتجى بحماك نال رضاكا

2.3. تجلِّـي الذَّات النَّبويَّـة عند الإمـام الشقراطيسـي

التحق في هذا المجال الإمام الشقراطيسي (النبهاني يوسف بن اسماعيل، د ت، ص:198)، في قصيدته اللامية، فالإضافة إلى طولها – بلغت 135 بيت – نجدها قـد اشتملت على عناصر قصيدة أبي حنيفة السابقـة، وعناصر جديـدة فظهر معها تشكُّل بيِّن لقصيدة المديـح النبوي، وتعطينـا صورة للأسلوب المباشر الذي دخل بـه بعضهم إلى الرسول الكريم صلـى الله عليه وسلـم؛ إذ يقول في مطلعها (النبهاني يوسف بن اسماعيل، د ت، ص:198):

الحمد لله منـا باعث الرسـل *** هـدى بأحمد منا أحمد السبـل
خير البرية من بدو ومن حضر *** وأكرم الخلق من حاف ومنتهل

لقد عمد الإمــام الشاعر في مطلع قصيدته أن يبتدئها **بالتبرك والتقرب** مــن المولى الكريم جـلَّ وعلا، حيث استهل كلامـه بالحمد والثناء عليه سبحانــه وتعالى؛ لأنه بعث إلينا الرسل وهدانــا وإياهم بخاتم النبيين وإمــام المرسلين محمـد صلى الله عليه وسلم، وهو المفضل عليهـم جميعـا؛ لأنه صاحب رسالـة سماوية خالـدة لا تنتهي بزمان ولا تحد بمكان، ولكنهـا شاملة دائمة إلـى أن يرث الله الأرض ومن عليها (مرتاض محمد، د ت، ص ص:143، 144).

والقصيدة في أكثرها سيرة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من ولادته حتى وفاته، وما يتخللها من ذكر للحوادث والمعجزات التي حلَّت بالكون لتزلزل إيوان كسرى وخمود نار فارس، وفي ذلك يقول (النبهاني يوسف بن اسماعيل، د ت، ص:199):

أضاءت لمولده الآفـاق واتصلت *** بشرى الهواتف في الإشراق والطَّفَلِ
وصرح كسرى تداعى من قواعده *** وانقض منكسر الأرجـــاء ذا ميل

ونـــار فارس لم توقد وما خمدت *** مذ ألف عام ونهر القوم لم يسـل
خرت لمبعثــه الأوثان وانبعثت *** تواقب الشهب ترمي الجن بالشعل

ليصل إلى الحديث عن معجزاته صلَّى الله عليه وسلَّم بشـيء من التفصيل، حيث يقول (النبهاني يوسف بن اسماعيـل، د.ت ص:199):

ومنطق الذئب بالتصديق معجـزة *** مع الـــذراع ونطق العير والجمـل
وفي دعائك بالأشجـار حين أتت *** تمشي بأمـرك في أغصانها الذلـل
وقلت عـــودي فعادت في منابتهـا *** تلك العـــروق بإذن الله لـم تمـل
والشجر بالشام كما جئتها سجدت *** شم الذوائب مـن أفنانها الخضـل
والجـــذع حنَّ لأن فارقتـه أسفـا *** حنين ثكلى شجتها لوعـة الثكـل

لينتقل بعد هذا السرد إلى هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة، وما حل به وصاحبه في الغار من معجزات إلهية، وتتبع سراقة لهما، ليتحدث بعد ذلك إلى قصة إسرائه ومعراجه عليه السلام وهو في هذه المقامات العالية، إذ يقول (النبهاني يوسف بن اسماعيـل، د ت ص:211):

وآية الغـــار إذ وقيت في حجب *** عن كل رجس لرجس الكفر منتحل
وقال صاحبك الصديق كيف بنـا *** ونحن منهم بمـرآى الناظر العجـل
فقلت: لا تحـــزن إن الله ثالثنـا *** وكنت في حجب شـــر منه منسدل
حامت لديك حمام الوحش حاسمة *** كيدا لكل غـــوي القلب مختبـــل
والعنكبوت أجادت حوك حلتها *** فما يخـــال خلال النسج من خلل
قالوا وجاءت إليه سرحـة سترت *** وجـــه النبي بأغصان لهـــا هـدل
وفـــي سراقـــة آيات مبينـــة *** إذ ساخت الحجر في وحل بلا وحل
عرجت تخترق السبع الطباق إلى *** مقـــام زلفى كريم قمت فيـه علي

ولا يزال الشاعر هكذا في سرد حيـاة الرسول صلى الله عليه وسلم ويحكي عن جهـاده وتضحياته وصبره مع أصحابـه، وما قـاد من غزوات ومعارك وانتصارات معهم حتى يقيم الدين الإسلامي الحنيف كما أمره تعالـى.

ونجده يختتـم في آخر قصيدته بعنصر التوسل راجيـا زيارة الرسول صلـى الله عليه وسلـم، إذ يقول (النبهاني يوسف بن اسماعيـل، د ت ص:211):

يا خالق الخلق لا تحرق بما احترمت *** يداي وجهي من حوب ومن زلـل
وصـــل رب وواصل كـل صالحـة *** على صفيك في الإصباح والأصـل
عليه صل صـــلاة لا انقطاع لهـــا *** عد الحصى وعد يـد الرمل ثم صل
واحفظ على القلب مني حسن خلته *** واغفر لعبدك عبد الله وابن علـي

3.3. تجلّـــي الذّات النّبويّــة عند الإمــام الزمخشري

إلى جانب الإمام الشقراطيسي نجد الزمخشري (ت538 هـ) قد ساهم بقصيدتين في المدح النبوي، ومطلع الأولى من "36 بيتا"(النبهاني يوسف بن اسماعيـل، د ت. ص:35):

أضاء لي باللّوى والقلب متبول *** نجدي برق بنار الحب موصـول
كأنَّ ومضتـه مـن ناره قبس *** والخد مني بماء الشوق مطلـول
فمرَّ خافقه يهــوي إلى طلـل *** عهدي به وهو من أسماء مأهول

إن المتأمـل في قصيدة الزمخشري يدرك مباشرة أنها تقليد لما جاء في القصيدة اللامية لكعب بن زهير، بـل إن العديـد مـن المرات نجد القصيدة قد أنبتت بنفس ألفاظ وتراكيب قصيدة كعب.

وأما خاتمة القصيدة –كغيرها من قصائد المدح النبوي– فقد جاءت عبارة عن توسل ورجاء بالرسول الكريم، وطلب شفاعته، حيث يحظى التوسل بنصيب كبير من القصيدة، إذ يقول (النبهاني يوسف بن اسماعيـل، د ت ص:131):

يا خاتم الرسل إن الطول منك على *** راجي الشفاعة يوم الحشر مأمول
فهل يخيب فتى لا حبــل ذمتــه *** واهٍ ولا عقدة في الصدق محلـول
ولا اشتكت دخلا منـه مناصحة *** ولا مناصح إلا وهـو مدخــول
ما مست الكأس يمناه ولا صدمت *** فاهُ وكلهــم بالــــراح معلـول
والعرض ريط يمان في الصوان وإن *** تملك يــداه مصونا فهـو مبذول
وإن يل العمل المسخوط آونـةٌ *** فبينمـا العمـل المرضى معمـول

أما القصيدة الثانية فهي مكونة من 53 بيتا ومطلعها (النبهاني يوسف بن اسماعيـل، د ت ص:131):

قامت لتمنعنــي المسيـر تماضر *** أنَّـى لهـا وغـرار عرمي باتـر
شامت عقيقـة عزمتي فحنينهـا *** رعـد وعيناهـا السحـاب الماطر

وما أضافته هذه القصيدة إلى قصيدة المدح النبوي من تجديد، هو العنصر الخاص بالأماكن المقدسة والتشوق لزيارتها، بحيث قضى الرسول صلى الله عليه وسلم حياته بين أنحائهـا، ونلمس هـذا التجديد في الجـــزء الأخير من القصيـــدة؛ إذ يقـول (النبهـــاني يوسف بن اسماعيـل، د ت، ص ص:134، 135):

هل فـي قضــاء الله أني قـادم *** أم القـــرى وإلـى البنيــة ناظـر
فمقبل الحجر الممسح ملصقا *** خــدي بـــه وعليــه دمعي قاطر
فبذلك البيت المستـــر طائف *** في ثوبـي الإحرام أشعث خاسـر
فمبادر للسعي ما بين الصفـا *** والمــروة العبـــد المجد مبـادر
فمراقب نفر الحجيج إلـى منىً *** فإي منـــى قبل المعرف نافـــر
بهم يباهــي الله في ملكوتـه *** أهـــل السماوات العلا ويفاخـر

حتى إذا دلكت براح فطارق *** جمعا فمنه إلى المحضب باكر
فمجمر فمقصر أو حالق *** نحر النهار فللنَسيكة ناحر
ومتى تضم قتود رحلي ضامرا *** يهفو به نحو المدينة ضامر
ماض على الظلماء يخبطها إلى *** بلد أضاء به السراج الزاهر

لينتقل بعدئذ إلى شوقه لزيارة الرسول صلى آله عليه وسلم، فيقول (النبهاني يوسف بن اسماعيل، د ت، ص:135):

يهوي إلى قبر النبي محمد *** خببا كما رف الظليم النافر
لله ميت بالمدينة قبره *** قصر مشيد والقصور مقابر
لله ميت كل حي لم يكن *** بهداه حيا فهو عظم ناخر
إن لم أنله ولم يكن مني له *** بسنان رمحي أو لساني ناصر
فأنا النصور لوحيه بدلائل *** وجه اليقين بهن أبلج زاهر

ليختتم قصيدته بالتوسل والرجاء اللذين أصبحا تقليدا في كل مدحة نبوية، إذ يقول (النبهاني يوسف بن اسماعيل، د ت ص:135):

يا رب إني أستجيرك في الذي *** نطت الرجاء به وأنت الخائر
وإليك أرغب في النهوض بهمتي *** حتى أفي لجميع ما أنا ناذر

والمتأمل في شعر هذين الشاعرين –الشقراطيسي والزمخشري- يجد أنهما لم يكونا متصوفين أو أنهما ارتبطا بالطريق الصوفي، لكنهما بلورا هذا الاتجاه وفق الصورة الكاملة والمتكاملة؛ ذلك أن فن المديح النبوي "لم يكن فنا ظاهرا بين الفنون الشعرية، كالرثاء، والوصف والنسيب ...، وإنما هو فن نشأ في البيئات الصوفية، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل، ولأن لأصحابه غايات دينية وأدبية خليقة بأن تدرس وبأن يرفع عنها إصر الخمول"(مبارك زكي، دت، ص:18).

وفي إطار المضامين والبنى التحتية لهذه المعاني، فإن الأفكار الصوفية تسربت وبقوة في شرايين هذا الفن –المديح النبوي- وإن من أكبر القضايا الصوفية التي تمحورت عنها المدائح النبوية، ما أصبح يعرف بـ "الحقيقة المحمدية" أو "النور النبوي" أو ما أستطيع أن أصفه بـ "النور المطلق اللامتناهي"، الذي انبثقت منه الأكوان في التصور الصوفي؛ ذلك لأن الحقيقة المحمدية لا تسطع إلا من "الذات المحمدية" حيث النور الأزلي هو منبع الأنوار جميعها.

والتصوف ما كان ليحتضن بقوة هذه الأفكار، إذ لم يجد لها سندا ورافدا من التراث الإسلامي... ومن النصوص الدينية سواء كانت صحيحة أم ضعيفة، ومن الأمثلة على ذلك بيت لكعب بن زهير (فاعور علي،2012، ص:60):

إن الرسول لسيف يستضاء به *** مهنَّد من سيوف الله مسلول

حيث تذكر الروايات أن الشاعر استبدل لفظة (السيف) بكلمة (النور) تحت طلب النبي صلى الله عليه وسلم له.

فالتغني بالحقيقة المحمدية هو جوهر الإنسان الكامل، لأن الذات النبوية قد ولدت في نفوس الشعراء المادحين للنبي صلى الله عليه وسلم شعورا نورانيا عارما بالحب، فأصبح الإحساس مضافا إليه ومنسوبا له، كما أن جل الشعراء مشرقا أو مغربا كان يسعدهم البوح بهذا

الحب وهذا الإحساس الصادق نحوه صلى الله عليه وسلم، ويتباهون في التعابير عنه، والتفاوت في التعبير عن هذا الهيام بين الشعراء وبين المتصوفة نتيجة الإحساس الداخلي وكوامنه، ونتيجة التباين في المكونات الشعرية، ذلك "أن الهيام بالرسول عليه الصلاة والسلام، يرتكز أساسا على الحقيقة المحمدية"(مخيمر الصالح،1986،ص: 192) ، فهذا الهيام وهذه الحقيقة شحذت عاطفة العلماء والأدباء شحنات وطاقات إبداعية جميلة، وفجرت إنتاجا غزيرا ومتنوعا لا حدود لأبعاده وآفاقه، حيث نجدهم –الشعراء والأدباء– تتبعوا مراحل السيرة النبوية الزاخرة، بدءً بالحديث عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ومولده إلى الحديث عن وفاته وآل بيته ومعجزاته...

ولعل المغاربة –كتابا وشعراء– عنوا عناية كبيرة بموضوعات خاصة كالمعراج والهجرة والنعال النبوية والشوق إلى زيارة البقاع المقدسة، وهي كلها تشكل جوانب مختلفة من فيض الحب النبوي الذي كان يكنه هذا الشعب للرسول صلى الله عليه وسلم ومغذية له، ومتجاوبة معه سواء ما جاء به في ذلك من النثر أو الشعر.

لقد أضفى الشعراء على الرسول صلى الله عليه وسلم من كمالات ونسبوا إليه من المعجزات ما كادوا يخرجون به صلى الله عليه وسلم عن طبيعته البشرية، ولهذا فشتان ما بين التصور الواقعي البشري، كما صوره شعراء المديح النبوي الأوائل من أمثال كعب بن زهير وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ومعاصريهم وبين التصور المتأخر للرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته إلى سلسلة طويلة متصلة من الخوارق والمعجزات والقدرات فوق الطبيعة (شقور عبد السلام، 1996، ص:130).

والظاهر أن شعراء النبويات وهم يرددون معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كانوا يبلورون حاجة المجتمع آنذاك إلى مثال كان يفتقده أو إلى أمل يتعلق به، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المنقذ والمخلص والحامي والأب والرحيم والشافع والمشفع لجميع الناس والخلق أمام الله سبحانه وتعالى.

وإذا جئنا للكشف والتعرف على أهم من تأثروا بالحقيقة المحمدية من الأئمة ونسجوا حولها كتبا قيمة نجد من بينهم الإمام القاضي عياض في كتابه "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" والإمام الغزالي في كتابه "كتاب الإحياء" وغيرها، وكلها مجَّدت "الحقيقة المحمدية" وانبهرت بصورة الإنسان الكامل.

خاتمة

إنَّ التَّغني بالحقيقة المحمدية تمثِّل جوهر الإنسان الكامل؛ لأنها ولَّدت في نفوس الشعراء المادحين للنبي صلى الله عليه وسلم شعورا عارما بالحب النبوي.

والحقيقة المحمدية قول بالاختلاف والتميز، وبأنَّ النبي محمد صلَّى الله عليه وسلم متفوق على الجميع، أعلمه ربه بنبوته قبل سائر الأنبياء، وحين كان آدم بين الماء والطين، أي بين الروح والجسد، فلما خلق آدم حلت فيه تلك الحقيقة وظلت تنتقل إلى أن ظهرت فيه عليه الصلاة والسلام، فهذه الفكرة –على ما يبدو– قديمة قدم الإسلام وتاريخه، وزاد الشاعر الصوفي المادح له صلى الله عليه وسلم من توضيح صورته النورانية وفي حقيقته التي تجلَّت في قصائده.

قائمة المصادر والمراجع

1- أكديرة، محمد رشيد، وأسرايدي، المصطفى، 2010، حجية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، تق: امحمد خالد، المغرب، مطبعة ملك سطات.

2- مبارك، زكي، (د ت)، المدائح النبوية في الأدب العربي، صيدا، بيروت- لبنان، منشورات المكتبة العصرية.

3- المقري، محمد بن أحمد، 1980، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحـــق: سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت، المغرب، الإمارات العربية المتحدة، طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة.

4- الفاخوري، حنا، 1996، تاريخ الأدب في المغرب العربي، بيروت-لبنان، دار الجيل.

5- المقري التلمساني، أحمد، 2008، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحق: إحسان عباس، الجزائر، دار الأبحاث.

6- عبيدلي، أحمد، 2004-2005، الخطاب الشعري الصوفي المغربي في القرنين السادس والسابع الهجريين- دراسة موضوعاتية فنية- رسالة الماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة- الجزائر.

7- بن عربي، مُحي الدين، 1954، الديوان الكبير، بغداد- العراق، مطبعة مكتبة المثنى.

8- أبو زيد، علي، 1983، البديعيات في الأدب العربي، نشأتها، تطورها، أثرها، بيروت- لبنان، عالم الكتب.

9- عطية، محمد عارف، 2003، القصيدة النعمانية في مـدح خير البرية للإمام أبي حنيفة النعمان، القاهـرة – مصر، دار غريب للنشر والتوزيع.

10- مخيمر، صالح، 1986، المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، بيروت-لبنان، دار ومكتبة الهلال، عمان-الأردن، الدار العربية.

11- يوسف ابن إسماعيل النبهاني، (د ت)، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، بيروت-لبنان، دار الفكر.

12- محمد مرتاض، (د ت)، الشعر الوجداني في المغرب العرب من القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري، قراءة جمالية وفنية، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

13- فاعور، علي، ديوان كعب بن زهير، 2012، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية.

14- شقور، عبد السلام، 1996، الشعر العربي في العصر المريني – قضايا وظواهر- المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان سلسلة الأطروحات.